تجربة الفناء في الخطاب الصوفي

بن عصمان منصورية
مخبر الفينومينولوجيا وتطبيقاتها / جامعة تلمسان

يعتبر التصوف ظاهرة فريدة شغلت المفكرين منذ بروزها فهو من الدراسات المهمة والضرورية في مجال الفكر التاريخي لما فيه من خطابات متنوعة ولغة كاتمة اشتملت على مصطلحات وحّدت بينهم لا يفهمها إلاّ أنفسهم يغرقها الرمز وذلك للحفاظ على سر الربوبية الذي يحل فيهم، فهو مسلك حياتي ومعرفي وتجربة روحية ووجدانية وشخصية وفردية تعتمد على الرياضة النفسية والباطنية والذوقية تخاض خارج حدود العقل وضوابطه المنطقية والاستدلالية ذلك فإن له منطقه الخاص القائم على التجربة الذوقية والعرفانية فهو مثل أي موضوع له خطابه الخاص وهذا الخطاب شأنه شأن الخطابات الأخرى فهو يمتلك الآليات والشروط التي توفر له النصية مثل نصوص وكتابات الحلاج وشيخ العارفين ابن عربي والتي تمثلت في الشعر واستعمال أسلوب الإشارة والتي كان هدفها التعبير عن تجربتهم الروحية والاتصال بالله وذلك عن طريق المرور بالمقامات والأحوال للوصول إلى أهم حال وهو حال **الفناء** فالصوفي من خلال تجربته الصوفية يستعين بالمقامات والأحوال التي توصلهما إلى المعرفة الإلهية فيرتقي الصوفي من خلال تجربته من مقام إلى مقام و من حال إلى حال حتى يصل إلى أشرفهما وهو حال «الفناء». فما معنى الفناء في الخطاب الصوفي الإسلامي وإلى أي مدى يلعب الفناء أدوار التناجي الصوفي؟

حال الفناء عند المتصوفة :

إن الفناء مصطلح صوفي يعبر عن إحدى الحالات التي تعتري السالك أو العارف في مسيرته السلوكية و المعرفية وهو ظاهرة روحية و سيكولوجية وهو إحدى الكرامات التي يمنّ الله بها على من يشاء من العارفين وعادة ما تصحب أطوار العرفان الصوفي في أشكاله المختلفة من مجاهدات ورياضة وتأمل عالم روحي من أجل تطهير النفس وتزكية الروح بالفضائل والفناء يقابله البقاء، إذ الفناء هو سقوط الأوصاف المذمومة أما البقاء هو قيام الأوصاف المحمودة به[1].

فجملة الفناء و البقاء تعني أن يفنى عن حظوظه و يبقى بحظوظ غيره.فالفناء هو التجلي بالأخلاق القويمة والتخلي عن الرذائل الدنيئة فمن فني عن جهله بقي بعلمه ومن فني عن شهواته بقي بإنابته،وبالتالي يعتبر الفناء الهدف الأسمى للصوفي فهو في طريقه إلى الله يسعى للوصول إليه، لكن يجب على الصوفي أن يرتقي من الفناء إلى البقاء لأن الفناء يتخذ مظهران: أحدهما يكون بكثرة الرياضة والثاني يكون بعدم الإحساس بعالم الملك والملكوت وهو بالاستغراق في عظمة البارئ ومشاهدة الحق.

يعرفه **الجيلاني** : «أن الفناء هو إعدام الخلائق،وانقلاب طبعك عن طبع الملائكة، ثم الفناء عن طبع الملائكة، ثم لحوقك بالمنهاج الأول و حينئذ يسقيك ربك ما يسقيك، ويزرع فيك ما يزرع»[2]. كما يعرفه **الكلاباذي**:» الفناء... هو غيبة عن أوصافه فيرى بعين المتاهة وزوال العقل لزوال تميزه وهو على ذلك محفوظ في وظائف الحق عليه»[3].

فالفناء في نظر ابن عربي ليس ثمرة ضرورية لازمة ولا نتيجة حاصلة لرياضة الصوفي وإخلاصه فلا تخضع لنسقيه

معينة إذ الظواهر الانفعالية التي تسبق أو تصحب الفناء تتميز بالمفاجأة في الظهور بل هو فضل من الله وموهبة يمنحها لمن يشاء وكما يشاء. إذ يرى الصوفية أن الفناء الصوفي هو الحال التي تتوارى فيها آثار صفات النفس المذمومة التي هي وليدة الهوى و الشهوة فقد أدرك الصوفية أن الصفات السيئة والميول والأفعال المذمومة وعاداته، فمتى فنى العبد من أوصافه المذمومة وعاداته وأن محو هذه الصفات يقترن بالتحلي بالصفات المحمودة.[4]

وقد يختلف الصوفية في حال الفناء فمنهم من يعود إلى حال البقاء والوعي بالذات وحقيقتها فيثبت الإثنية (الخلق ـالخالق) ومنهم من يطلق إلى القول بالحلول والإتحاد حيث يحل الله في الإنسان أو يتحد به ،وتصبح نظرة العارف إلى العالم على أنه واحد لا كثرة فيه وكل ما نراه هو مجرد صورة للحقيقة الواحدة (الله).

وانطلاقا من هذا يمكن أن نقسم تجربة الفناء عند الصوفية إلى نوعين:

الأولى : هي التجربة التي نظر لها و عبر عنها ما يعرف بالمتصوفة السنة أمثال **القشيري والجنيد والغزالي**.

والثانية :تلك التي عاشها وتحدث عنها وكتب فيها وهم المتصوفة المتفلسفينأمثال الحلاج والشيخ الأكبر ابن عربي. وسوف نقتصر في هاته الدراسة على أهم المتصوفة الذين عايشوا تجربة الفناء أمثال الحلاج و ابن عربي.

الفناء و إشكالية الحلول عند الحلاّج:

لقد شكلت شخصية الحلاج أغرب الشخصيات التي لاقاها التصوف الإسلامي لأن تجربته الروحية كانت نوعا ما لافتة حتى أن فناءه و حبه لربه عجل بموتهفالحلاج قد غلب عليه حال الفناء فصدرت عنه شطحات بالرغم من كونه أنه كان أكثر دقة في التعبير عن هذه الحال لعل ذلك يعود إلى عمق تأثره بالثقافات الأجنبية و العقائد المسيحية.

ويصور الحلاج حال الفناء بقوله بأن الله إذا أراد أن يوالي عبدا من عباده فتح عليه باب الذكر ثم فتح عليه باب القرب ثم أجلسه على كرسي التوحيد ثم رفع عنه الحجب، فيريه الفردانية ثم كشف عنه الكبرياء والجمال،فإذا وقع بصره على الجمال بقي بلا هو وحينئذ صار العبد فانيا وبالحق باقيا فوقع في حفظه سبحانه ويرى من دعاوي نفسه.[5]

ويورد في هذا السياق مواقف يفصح فيها عن الفناء و الحلول

عجبت منك ومني يامنية المتمني
أدنيتني منك حتى ظننت أنك أنّي
وغبت في الوجد حتى أفنيتني بك عنّي[6]

فالحلاج عاش تجربة الفناء واعتقد بأن الإله حال في ذاته الإنسانية و بتعبير أدق اعتقد بحلول الطبيعة الإلهية في الطبيعة الإنسانية أو حلول اللاهوت في الناسوت وعليه فالفناء الحلاجي فاق الحدود حتى أنه تجاوز المعقول بقوله بزوال الحاجز بينه و بين خالقه سبحانه فقد أفنى نفسه في محبة خالقه ،فلقد بلغت قمة الفناء عند الحلاج بقوله «ما واحد الله غير الله».

إن تجربة الحلول عند الحلاج تتضمن فكرة الفناء أي فناء الإرادة الإنسانية تماما في الإرادة الإلهية حيث يصبح كل فعل إنساني يكتسي صيغة إلهية و بالتالي إن فلسفة الفناء عند الحلاج تعني اضمحلال الإرادة الإنسانية و تلاشيها حتى تصبح كل الأفعال الإنسانية مبعثها الإرادة الإلهية.

يقول الحلاج:

أنت بين الشغاف و القلب تجري مثل جري الدموع من أجفاني
و تحل الضمير جوف فؤادي كحلول الأرواح في الأبدان
ليس من ساكن تحرك إلاّ أنت حركته خفيّ المكان [7]

فمن خلال هاته الأبيات يصرّح الحلاّج بفكرة الحلول أي حلول الله في الإنسان أي حلول اللاهوت في الناسوت و يتضمن الحلول عند الحلاج فناء الإرادة الإنسانية تماما في الإرادة الإلهية بحيث يصبح كل فعل صادر عن الإنسان صادر عن الله.

تختلف فكرة الحلول عند الحلاج عن نظرية وحدة الوجود في كون الحلاج يقر بالثنائية أصلا و في سعيه العرفاني التطهري تحل الذات الإلهية محل الذات الإنسانية فهو محو لصفاته البشرية، وهذا يختلف عن فكرة الفناء كما يرها الشيخ ابن عربي مثلا إذ الفناء عنده حال يتحقق فيها الصوفي باتحاد موجود بالفعل ولاينكشف إلا للعارفين الكمّل، وليس مجرد تحول في الصفات ولا صيرورة ولا حلولا، وإنما هو تحقق من الصور الفاني وبقاء للذات الأبدية.[8]

فكرة الفناء عند الشيخ الأكبر «ابن عربي»:

سبقت الإشارة إلى أن فكرة الفناء تعني التخلص من الصفات الإنسانية والتحقق بالصفات الإلهية فهي نوع من المحو والغياب عن الوحي والإحساس الشعور والتحقق بنوع آخر من الحضور و الإدراك، لا يدرك العارف شيئا من خصائصه البشرية لأنه سيكون من طبيعة ثانية ،طبيعة إنسانية إلهية،إنه تحقيق لنوع من البقاء بعد التخلص من كل العلائق البشرية.

إن حال الفناء عند الشيخ الأكبر له معنى آخر إذ تؤكد حقيقة التحام الذات الفردية وفنائها في عالمها الأوحد بنوع من الحضور يؤكد طبيعة الوحدة الوجودية الناتجة عن التجلي الإلهي، إن كل الموجودات العنصرية والروحية ليست إلا تجليات للأسماء والصفات الإلهية.

إنه فناء الصور الوجودية المتكثرة والتي لا تعدو أن تكون إلا مجرد تجليات رحمانية في هذا الوجود بتكويناته العنصرية والروحية، فالذات الإلهية واحدة وحال الفناء التي يعيشها العارف هي خطوة وسعي نحو تأكيد تلك الحقيقة.

إن تصور ابن عربي للفناء مختلف في جوهره عن الرؤية الحلولية لهذه الحالة، لأنه يقر بحقيقة وجود الذات الفردية، ولكن ليست من حيث ذات مستقلة تسعى إلى الفناء في الذات الإلهية، بل من حيث ذات مستقلة تسعى إلى الفناء في الذات الإلهية بل من حيث هي إحدى أبعاد الحقيقة الإلهية، فهي تجليات وتعينات للأسماء والصفات، هي امتداد وتجليات، وإتمام لمعنى الألوهية الواحدة أصلا.

يقول ابن عربي:

فلا تنظر العين إلا إليه ولا يقع الحكم إلا عليه
فنحن له وبه في يديه وفي كل حال فإنا لديه[9]

إن لحظة الفناء الصوفي و من المنظور الأكبري و هو أن العارف لا يدرك إلا حقيقة واحدة، حقيقة الحق المتعينة في كل الموجودات،وهي لا تدرك إلا كشفا بعد أن ينزع عن قلبه كل الحجب الساترة للحقيقة الإلهية فالعارفون عند ابن عربي هم الذين يدركون هذه الحقيقة في الدنيا أما عامة المؤمنين فهم يدركونها بعد الموت فالفناء هو نوع من الغيبة يصحبها كشف و شهود،أو قل معرفة غايتها الفناء عن شهود الكثرة و ليس نفيا لها ،و تقتضي نظرية التجلي الإلهي أن الله يشتاق إلى عبده كما يشتاق العبد إليه فالحب والشوق والحنين إلى اللقاء حقيقة موجودة على الدوام لأن الحق دائم الظهور في صور الخلق.[10]

إن الفناء في الخطاب الصوفي الإسلامي هو عبارة عن تجربة يخوضها الصوفي للتقرب من خالقه وذلك تعبيرا عن مدى حبه وعشقه له وإرادته فيه فهو الحال الأول الذي يمتلك الصدارة بين جميع الأحوال لما فيه من صعوبة للوصول إليه لما فيه من نقاوة وصفاء، بحيث العبد الصوفي قبل أن يصل إليه يمر بطريق شاقة من العبادات والمجاهدات فمن خلاله يطلع الصوفي على الحقيقة الوجودية ذات الطبيعة الإلهية وفيه يدرك أن الحق واحد.

الهوامش:

1 الإمام أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، مطابع مؤسسة دار الشعب ـ للصحافة والطباعة والنشر، د،ط ،1989 ص133.

2 محمد المنصف بن البشير ،فلسفة ابن عربي في المعرفة والوجود ،عالم الكتب الحديث للنشر و التوزيع ،ط2016،1،ص 189

3 أنا ماري شيمل ،الأبعاد الصوفية في الإسلام و تاريخ التصوف ،منشورات الجمل ،ط2006،1،ص12

4 عبد الباري محمد، الفناء عند صوفية المسلمين والعقائد الأخرى ،دار المصرية اللبنانية ، ط1997،1،ص125

5 أبو الوفا الغنمي التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي ،دار الثقافة للنشر و التوزيع ،ط1، ص126

6 المرجع نفسه ص،127.

7 أبي عبد الرحمن محمد بن الحسن السلمي، طبقات الصوفية، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط2، 2003 ص 238.

8 أبو العلا عفيي، التعليقات، دار الكتاب العرب ي،بيروت لبنان ، ط2، 1980 ص17.

9 ابن عربي، فصوص الحكم فص 10 حكمة أحدية في كلمة هودية، ص111

10 محمد المنصف بن البشير، فلسفة ابن عربي في المعرفة والوجود، دراسة تحليلية نقدية، المرجع السابق، ص 205.